الجزائر في أدبيات رحالة القرن التاسع عشر

رحلة المشرفي الجزائري أنموذجا

الدكتور عبد الحق شرف، جامعة تيارت

ملخص:

لا زالت الكتابات التاريخية حول الجزائر خلال القرن التاسع عشر تعتمد في مجملها على الكتابات الفرنسية بدرجة كبيرة. وقد يُبرَّرُ ذلك بكون المصادر الجزائرية خلال هاته الفترة كانت إما منعدمة، وإن وُجدت فهي في أغلبها لا تزال مخطوطة لم يرفع عنها غطاء النسيان. ومن هاته المصادر المهمة والتي نُسجت على منوال الرحلات، مخطوط عظيم الشأن، جليل القدر تحت عنوان "ذخيرة الأواخر والأول فيما ينتظم من أخبار الدول" للعالم الجزائري العربي المشرفي المعسكري الجزائري دفين مدينة فاس.

وقد قدّم لنا المشرفي من خلال هذه الرحلة وصفا مهما ودقيقا لمدن وأقاليم الجزائر خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وذلك بعد زيارته إلى الجزائر سنة 1877. ورغم أهمية هذه الرحلة فإنها ظلت لسنوات طوال، مقبورة داخل دور المخطوطات، ولم تنل حقها من الدراسة أو التعريف.

Abstract:

Historical writings about Algeria during the 19th century are still largely based on French writings. This may be justified by the fact that the Algerian sources during this period were either nonexistent, or even if they exist, they are generally still manuscripts that have been forgotten. Among these important sources, which were written during trips, a great manuscript, extremely important entitled "the treasure of the late and the first in a state of the news" of the Algerian Arab o Mascara El Machrifi buried n the Devine city of Fez.

During his journey, El Machrifi gave us an accurate description of Algerian cities and territories during the second half of the nineteenth century, after his visit to Algeria in 1877. Despite the importance of this journey, it remained for many years, buried inside the cited manuscripts.

مقدمة:

تعدّ الرحلات مصدرا مهما لكتابة التاريخ المحلي والوطني، وحتى الأحداث التي تصطبغ بصبغة العالمية. وفي هذا الصدد حفظت لنا الأيام رحلة مهمة من الرحلات التاريخية، للمشرفي الجزائري دفين فاس.

وهي رحلة مضى فيها صاحبها زائرا لعدة أصقاع من الجزائر وغيرها خلال النصف الثاني القرن التاسع عشر، ودوّن لنا من خلالها مشاهداته عن المناطق التي زراها. وهذه الرحلة وسمها صاحبها بـ"ذخيرة الأواخر والأُول" والتي يسميها بعض المؤرخين بالرحلة الجزائرية. وقد نوّه بأهميتها وقيمتها التاريخية والأدبية المستعرب الفرنسي هنري بيريز"***Henri péres***". وقد قسّمها إلى مقدمة، ستة أبواب وخاتمة؛ وما يهمنا منها هو الباب الخامس بيت القصيد في هذا المقال.

محطات من حياة صاحب الرحلة:[1]

ينتسب العربي المشرفي إلى أسرة المشارف. وهو العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي، بناء على ما قيده في كثير من مؤلفاته. وبالنسبة لتاريخ ولادته فإنه يطرح إشكالا كبيرا؛ وفي ظل هذا الإشكال الذي يخيّم على تاريخ ولادته؛ فإنّه أمكننا أن نهتدي إلى جملة من القرائن التاريخية كنا نعتقد أنها قد ترفعه وتقطع بيقينية تاريخ ولادته. فقد صرّح المشرفي في مقدمة كتابه **"الحسام"** أنّه بلغ سن الخمسين عند تأليفه حين قال: "وقد ناهز الخمسين جامعه ومؤلفه"[2]، وهذا الكتاب انتهى من تأليفه سنة 1285هـ/1868م كما أشار إلى ذلك هو بنفسه[3]؛ وبالتالي يكون قد حدّد لنا تاريخ ولادته تحديدا دقيقا؛ أي سنة 1818 وهو التاريخ الذي رجّحه صاحب **"الإعلام"**.[4]

وعلى الرغم من أن هذا التحديد كان إلى حلّ لغز تاريخ ولادته أقرب؛ إلا أنه فاجأنا بعبارة في المؤلف نفسه حين الحديث عن قبيلة الكنسوس قائلا: "فالقبيلة البربرية التي ينتسب إليها وهي إِدَاوْكَنْسُوسْ كما في تأليفنا **نزهة الأبصار**[5]"[6]. هذه الرواية بدل أن تحلّ المشكلة زادت الأمور تعقيدا، فاستدلّ المؤلف **بـ"نزهة الأبصار"** الذي أتم تأليفه بعد انتهائه من **"الحسام"** بخمس سنوات تقريبا؛ أي يوم الأربعاء 18رجب1290هـ/11سبتمبر1873م[7]، وهو ما يطرح إشكالا آخر: متى ألّف المشرفي **"الحسام"** حتى نقطع القول بأنه بلغ الخمسين وقتها؟

ومع أن هذا الإشكال يبقى قائما؛ فإن الإشارات التي أوردها المشرفي في عدد من مؤلفاته تجعلنا نجزم أنه من المستبعد جدا أن تكون ولادته سنة 1818، ومن المرجح أنها قبل هذا التاريخ بعشر سنوات على أقل تقدير. وربما يكون قد جاوز سنّ الستين عند تأليف "**الحسام**"[8]، سَنَدُنَا في ذلك أنّ كل المعلومات التي أمكننا تتبعها لتدلّ دلالة واضحة أنه كان قد بلغ سن الرشد خلال سنة 1818، وهو ما يجعل احتمال ولادته في هذه السنة غير صحيح.

فقد أخبرنا بأنه كان يدرُس في وهران سنة 1824[9] وأنه غادرها إلى معسكر سنة 1830 بعد دخول الاحتلال الفرنسي للجزائر؛ ليتولى تدريس الصبيان[10]، ثم وَصْفِه لمعارك الأمير عبد القادر الأولى ضد الاستعمار الفرنسي، وحضوره أولى التجمعات لمبايعته.[11] كما جاء في "**طرس الأخبار**" كذلك؛ أنه ساعد ثلاثة تجار مغاربة سنة 1836، في الانفلات من كمين لبعض قطاع الطرق وهو خارج من مدينة معسكر[12].

ومما يؤيّد ما ذهبنا إليه سلفا مِن أنه قد بلغ سن الرّشد سنة 1818؛ هو ما ذكره صاحب "**إتحاف المطالع**" بأن وفاته كانت سنة 1313هـ/1895م عن عمر يناهز التسعين[13]، مما يعني أن ولادته كانت مع مطلع القرن التاسع؛ وفي السنوات الخمس الأولى على وجه التحديد.

وأما عن مكان ولادته؛ فمن المؤكد أنه ولد بقرية الكرط ضواحي مدينة معسكر[14] ولم يشذ عن ذلك سوى صاحب "**إتحاف المطالع**"[15]. وذهب يحي بوعزيز إلى أنه ولد بغريس[16] التي ربما يَقصد بها سهل غريس الواسع وقرية الكرط جزء منه.

وقد تلقى تعليمه الأولي ببيت عائلته، ثم التحق بكُتّاب بلدته الكرط لحفظ القرآن[17]. وانتقل بعدها إلى معسكر ليتم مرحلة الجمع والتحصيل؛ فتتلمذه لثلّة من شيوخها الأجلاء. ثم غادر إلى مستغانم وتتلمذ على مشايخها وعلمائها[18].

وأخيرا استقر به المقام بتلمسان فوهران. حيث أشار عرضا إلى مقامه بالأولى، وتتلمذه على بعض علمائها كالشيخ الفقيه الحاج الداودي التلمساني وغيره. ثم انتقل إلى وهران في ماي 1824[19]، ليواصل تعليمه بها على شيوخه الذين تتلمذ لهم بادئ الأمر في معسكر.
وبعد الاحتلال الفرنسي قفل راجعا إلى معسكر، بعد أن أمضى ست سنوات من التحصيل بوهران، ليتولى تدريس الصبيان[20].

وبعد رجوعه لمعسكر، انطلق المشرفي في رحلة جديدة، بحثا عن العلم والتحصيل، فنزل ضيفا على منطقة مجاجة سنة 1833، لكنه لم يجد بها سوى عالمين اثنين[21].

وبعد انهزام الأمير عبد القادر في معركة عين طاقين سنة 1843، لم يقم المشرفي بمسقط رأسه طويلا، وشدّ الرحال مهاجرا نحو المغرب الأقصى سنة 1844، وبقي هناك إلى أن توفي –رحمه الله–سنة 1313هـ/1895م[22].وقد ترك بعد وفاته ثلة من التلاميذ كان معظمهم من عائلته، وأهمهم: محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي[23]، علي بن الحاج بن موسى الجزائري[24]، عبد القادر بن البشير، أبو العباس السيد أحمد.

التعريف بالرحلة: الرحلة عبارة عن مؤلَّفٍ يُعتبر من أهم مدوّنات العربي المشرفي وأجلّها قدرا. أتمّ تأليفه سنة 1882م. وهو تأليف يجمع بين التاريخ والرحلة يقع في سفرين من 333ورقة. ويوجد بعضه بخط المؤلف بالخزانة الفاسية[25]، بينما توجد النسخة الثانية منه بخزان الكتاني بفاس، ونقلت إلى الخزانة العامة بالرباط[26]. وقد أشار إليها ابن سودة قائلا: "وله رحلة إلى بلاد الجزائر تقع أيضا في مجلد"[27]، وهي معلومة يبدو أنه استقاها من الشيخ عبد الحي الكتاني الذي أخبر في كتاب دليل الحج والسياحة لأحمد بن محمد الهواري، أن للمشرفي رحلة جزائرية توجد بالجزائر، ويبدو أنها نفسها ذخيرة الأواخر التي اشتهرت في الجزائر بالرحلة الجزائرية أو رحلة الشيخ المشرفي، وهو ما يدل عليه قول الشيخ الحفناوي: "الرحلة المسماة ذخيرة الأواخر والأول تأليف الشيخ أبي محمد سيدي العربي بن علي المشرفي الحسني في حال مروره بالجزائر سنة 1294هـ".

وقد أشار أبو القاسم سعد الله، إلى وجود نسخة أخرى بالمكتبة الوطنية الجزائرية لكن لم نعثر لها على أثر. كما ذكر في السياق ذاته أن هناك نسخة أخرى نقل عنها المستعرب الفرنسي هنري بيريز "*Henri péres*"، لكنه لم يذكر مكان تواجدها ولا ما آلت إليه.[28] وقد ذكر المنوني الخبير بالمخطوطات المغربية، أن هناك نسخة أخرى مبتورة الآخر بخزانة خاصة بمراكش، لكن دون أن يحدّد اسم الخزانة.[29]

مناسبة تأليف الرحلة:

ألف المشرفي هذه الرحلة تلبية لطلب أحد أقاربه وهو تلميذه مصطفى المشرفي، حيث ورد في فاتحة الكتاب ما نصه: "فقد ورد علي مكتوب من لا تسعني مخالفته، وتتأكد علي بالقرابة

إجابته، أن أضع تقييدا قاصرا على سيرة ملوك الأتراك...كما طلب مني ما نعلمه من سيرة ملوك الدولة العلوية، ونسبتهم الشريفة النبوية...فلبيته لما دعاه وأجبته لمسعاه، وإن كنت لست أهلا لذلك، ولا ممن يسلك أوعر المسالك، والله الموفق لرقم الجواب، والهادي إلى أقوم طريق الصواب بمنّه وفضله، وبمنّه وعدله"[30] "وسميته ذخيرة الأواخر والأُول فيما يتضمن من أخبار الدول، وبادرت لامتثال ما به المكتوب ورد، لينجز حر ما وعد، وهذا الباعث على تسطير هذه الرسالة، ولم أماطل في تسويد أوراق العجالة".[31]

وصنّف العربي المشرفي مؤلَّفه على عادة المؤرخين القدامى في مقدمة، ستة أبواب وخاتمة. وما يهمنا هنا هو الباب الخامس الذي سرد فيه أطوار المرحلة الممتدة من ظهور الإسلام إلى عصره بشيء من التوسع في ذكر تاريخ الأتراك، ثم الاحتلال الفرنسي للجزائر.

مضامين الرحلة:

توزعت مواضيع الرحلة – الباب الخامس منها–على شكل مواضيع قدّم من خلالها مشاهداته عن الجزائر بعد زيارته لها، الأولى سنة 1849 والثانية سنة 1877 بعد أن كان مقيما بالمغرب أرض المهجر.

وقد أرّخ المشرفي في هذا الباب للفترة الممتدة من ظهور الإسلام إلى عصره، متسائلا عن أسباب تراجع المسلمين رغم ما يتمتع به الدين الإسلامي من غنى وتميز مقارنة مع النصرانية، مستشهدا بتعدد الزوايا والطرق وبأدبيات التصوف، وكتب الطبقات والمناقب[32]، كما أفرد حيّزا هاما لتاريخ الجزائر وأحوالها خلال الحكم التركي، وإبان الفترة الاستعمارية، وفيما يلي تحليل لمضامين هذه الرحلة:

1- وصف الحكم التركي بالجزائر:

في حديثه عن الأتراك نجد المشرفي يعرض لأصلهم حين يقول: "دولة الأتراك المضادين لدين الإشراك، فالخبر عنهم وعن شعوبهم، فالحكم أنهم من الأمم القديمة، وهم من نسل تُرك بن كومر بن يافث، بن نوح عليه السلام".[33]

كما نقل إلينا بعض مشاهداته في وهران عنهم، فأشار إلى تعسفهم وظلمهم وجورهم حين قال: "إلا أنهم أبادهم الله من المغرب، لما طغوا وبغوا طغيان الجور والفساد، حيث عَتَوا عُتوًا كبيرا،

وعاثوا في الأرض وأفسدوا، ومدّوا أيديهم بنهب الأموال، وسفك الدماء بغير حق، وهتك المحارم، وأحيوا ظلمهم القديم، ورجعوا لوصف آبائهم الذميم"[34]، "ما أظنّهم إلا من تلك الفئة الطاغية، والشرذمة الباغية"[35]، وفي المقابل نوّه بحبهم للعلماء، خاصة علماء أسرة المشارف.

2- ثورة الدرقاويين والتيجانيين على عهد الأتراك:

ثم تكلّم صاحب الرحلة بشيء من التفصيل عن ثورة درقاوة، وما آلت إليه البلاد من تردّ في الأوضاع السياسية جرّاءها، مشيرا إلى بعض من سبقه في الكلام عن هذه الثورة مثل الشيخ أبي راس. يقول المشرفي: "ففي حدود العشرين من قرننا هذا ثار عليهم "درقاوة" أهل النظافة في الدين والنقاوة، فأول ملك منهم هزموه" مصطفى باي" المكنىَّ ب" أبي كابوس" بمجرد مقابلة سيد هذه الطائفة الآتي ذكره للباي المذكور وهو في شرذمة قليلة، انهزم وترك محاله مبنية في وادي "فرطاسة" في أرض الحشم، ولم يثن عنان فرسه إلى أن دخل وهران".[36]

وقد تعرض بعد الحديث عن هذه الثورة، إلى انتقام الأتراك منهم، على أنه لم يطل الحديث فيها، حيث يقول: "فبعد تفرق الجموع والمواكب، استقرَّ المطاوع لشيخه بجبل الكواكب، ومدَّت الأتراك أيديهم في الرعية بالنهب وفعل الدنيَّة، وأهل النسبة عندهم هم الأعداء، ومن جهر بكلمة الشهادة يسفك دمه من غير قبول شفاعة فيه وإلا قد أعضل الداء، فلا فاجر عندهم أعظم ممن يعلن بالهيللة أو يوحد الله رافعا صوته بالبسملة والحمدلة، إذ كل ذاكر عندهم درقاوي يبغضونه من بين غرباوي وشرقاوي، حتى حسموا لهذه الطائفة المادة، ولم تبق في ايالتهم ما تعده منهم العادة"[37].

لينتقل إلى الكلام عن ثورة التيجاني الذي اعتبره إحدى مظاهر عدم رضا الشعب الجزائري بالحكم التركي، يستشف ذلك من قوله: "وما كان مع ابن السيد أحمد التيجاني دفين فاس المحروسة، فقد ثار عليهم ابنه السيد محمد وجاءهم في نفير من رماة الصحراء، وساعدته قبائل الحشم ومن جاورهم وأعلنوا له بالنصر".[38]

3- الحديث عن مدينة الجزائر: ثم تكلم الرحالة المشرفي عن مدينة الجزائر وتاريخ بنائها إذ يقول: "وكانت الجزائر هي أم مدائن الواسطة وقاعدة ملكهم معدة لحرب العدو، وأبراجها من جهة البحر محصنة بطبقات المدافع كأنها شعلة نار، أسفل الطبقات تضرب على وجه البحر،

وأعلاها تضرب ما طال من صاري السفينة"[39]، وتحدث عن وليها عبد الرحمن الثعالبي[40] وتلميذه أحمد بن عبد الله[41]، ثم عرّج على ذكر دخول الفرنسيين إليها[42].

4- مقاومة الأمير عبد القادر:

كما أشار المشرفي من خلال هذه الرحلة إلى مقاومة الأمير عبد القادر[43]. وفي حديثه عنها، نجد موقفه من الأمير عبد القادر ينقلب رأسا على عقب مما ورد في "طرس الأخبار". فقد أشاد كثيرا به وبأعماله، ليعدل عن موقفه العدائي منه، والنص التالي يعبر بصدق عن ذلك: "ولما كانت نية الحاج عبد القادر خالصة في دينه، وملّة نبيه صلى الله عليه وسلم، لم يعاقبه الله في الدنيا، فكانت معيشته ومعيشة أهله، على يد عدوّه وصديقه، وأسكنه الله الأرض المقدسة، فصار يمشي بأرض تردد فيها جبريله على كل نبي ورسول، فيالها من مشية بين قبور الأنبياء، وأهل الصلاح والأولياء، بعد أن جرّد سيفه على الأعداء، وناضلهم مناضلة الصحابة والأشدّاء...سل عن تردده في الميدان بيجو وأحبار الرهبان، وسل عن تردده في الصفوف أودية سيك وشعاب خروف...فبسبب سنة الجهاد التي أحياها في آخر الزمان، أحيا الله ذكره، وبتقديم والده المذكور، وحاز حمد الله وشكره".[44]

5- ثورة أولاد سيدي الشيخ:[45]

وفي حديثه عن هذه الثورة نجده يقول: "فاقتحموا المشاق والمهالك، وثاروا ثورة المجنون، وقالوا إنَّا لنا أجرا غير ممنون. تأمَّر الكبير منهم سنون وأعواما، وقتل بوالده جيوشا نصرانية وأرواما، ومات قرير العين بأخذ الثأر، وخلفه أخوه وما قال العثار، وشنَّ على عدوه الغارات، وقتل من في الحصن وداخل المغارات، إلى أن مات ساكن الفؤاد، حيث قتل في والده الرؤساء والقواد وأمراء الجيوش والأجناد، وخلفهما الأخ الثالث فأقسم بالسبع المثاني ورب المثالث، ليأخذنَّ بثأر الأخوين والوالد، ويحي تلك المشاهد، وما اندرس من تلك المعاهد". ويواصل المشرفي قائلا: "ولما رأى الفرنسيس الفتنة حول ساحته تحوم، وخيلها تمرج في تلك السحاري والتخوم، واستوطن الفتانون له كورة سجلماسة خاطب سلطان المغرب ذا الرأي والحماسة أبو علي مولانا الحسن بن مولانا أمير المؤمنين محمد ليكف عنه الفتان الذي هو في بلاده وبين رعيته يتردد".

وانتقل المشرفي بعد الحديث عن ثورتي الأمير عبد القادر وأولاد سيدي الشيخ للحديث عن الإفرنج، وبعضا من تاريخهم وأعمالهم بالجزائر، كإنشاء المدن وتوسيعها، وبناء الموانئ، وإنشاء الطرقات، واستصلاح الأراضي، وإنجازاتهم في قطاع التعليم.[46]

6- الحديث عن العلماء والقضاة:

كما نجده في السياق ذاته، ينوّه ببعض علماء الجزائر ويقدم تراجم وافية لبعضهم، فقد ترجم لكل من الحسن بريهمات[47]، وأحمد قدورة[48] وعلي العمالي[49]، ووالده أحميدة العمالي[50]، وحمودة القاضي[51]، وجملة أخرى من العلماء، خاصة منهم علماء الأسرة المشرفية، وعلماء مستغانم وتلمسان.[52]

ثم أفرد للقضاء فصلا مستقلا، وتكلم عن فضله وخطورة تقلده، حيث عدّه من أعظم الخطط الدينية الست دون الخلافة، أكمل قدرا عند الله تعالى[53]، حيث يقول: "فاعلم أن أعظم الخطط الست دون الخلافة القضاء، وأكملها عند الله قدرا، فإلى القاضي المرجع في الجليل والحقير، ويختص بالنظر في الجراحات والتدميات".[54]

ويؤكد المشرفي، على ضرورة حسن اختيار أعوان القضاء وتحديد أوصافهم، وضرورة رجوع القاضي للعلماء، باستشارتهم فيما يستجدّ من النوازل، إذ يقول: "وللقاضي، أن يتفطّن أيضا لأعوانه، ولا يرشّح لإعانته إلا العون الخيّر، بحيث يكون كالشاهد حرّا ذكرا غير مغفّل، لا يخدع ولا يقدح في عدالته، لأنه ترجمان القاضي وأمين سرّه ونهيه وأمره...ومن سنة القاضي أن لا يستغني عن مشورة العلماء في كل نازلة نزلت، بل يستعين بهم في جليل الأمر وحقيره، ومن أعرض عن مشورتهم عميت عليه إفتاء الوجه الشرعي، وانطمست آثاره".[55]

كما نجده يوصي "من ابتلي بالقضاء، والحكم بين العباد، أن يكون عاقلا، عفيفا، مرضيا، يغلب خيره على شرّه، فإن الحكم مبني على ميزان الاعتدال، فمتى رجح أو مال، تلفت به نفس ومال"[56]. وقد أنهى المشرفي هذا الباب بخاتمة مطوّلة، تحدث فيها عن مدن المغرب الأوسط ومدينة أم العساكر:

7- مدينة أم العساكر:[57] ذكرها المشرفي قائلا: "ومن مدن المغرب الأوسط أم العساكر وبها سرير الملك ولا ينتقل الملك منها إلى وهران إلا إذا اشتد الحر على عساكره يذهب بها إلى ساحل البحر إلى أن يعتدل الهواء فيرجع إليها. وهي مدينة عامرة الديار، واسعة الأقطار، اشتملت على مدينة عرقوب إسماعيل وبابا علي والباب الشرقي والعين البيضاء وسيدي علي بن محمد، والكل محدقون بالقصبة التي هي دار المخزن ومحل ديوانه وأحكامه. قد استدارها من جميع جهاتها ونواحيها بساتين التين وكرم العنب، وتينها أحسن التين لونا و أكبرها حجما وأنعمه شحما وأحلاه طعما، حتى يقال: " أنه ليس في الدنيا مدينة يوجد فيها هذا التين". ومنها يحمل التين والزبيب إلى سائر الأقاليم، من عدم تسويسه ويدخر لشدة السنين وتطول مدته، يجعلونه أعدالا ويسافرون به برا وبحرا ولا يتغير لونه ولا طعمه لامتزاجه في ظرفه فلا يتوصل لقسمه وقت المناولة إلا بآلة الحديد".

ويضيف المشرفي في وصف هذه المدينة قائلا: "وهواء هذه المدينة طيب لا وخم فيه، قليلة العلل كثيرة الغلل، لا تجتمع بها السفل، تنفر الفجار وتقبل على التجار، لا تكسد السلع في أسواقها ولا تبور المنفقين في أرزاقها، للغريب عرين ولأهلها نعم المتبوأ والقرين، اختطها حكيم الدولة بجبل الذهب، وبناها للدين مأوى وحفظا لما ينتهب، يجبى إليها من الراشدية كل خير، ويذب عنها أهل غريس إساءة الغير، ويكفون عنها الأيادي العادية، فلا تعدو على أحوازها عادية، واستغنوا عن الحاجة، بمزارع عواجة، وبطحاء غريس أغنت الفرنج اليوم عن باريس، فحصَّن أسوارها، وتحف أدوارها وأطوارها، فخمَّر عنبها، وخندريس تينها وعنابها، لا يوجد في قطر من الأقطار، ولا يستعمل في مصر من الأمصار، توزن بالصرف، وتزلزل العقول إذا شربت حال الصرف".

8- أقاليم المغرب الأوسط: ذكر الرحالة المشرفي أن المغرب الأوسط اشتمل على مدائن عظيمة وأقاليم جسيمة وهي:

1.8- إقليم معسكر:[58] فمن الأقاليم التي عرّف بها المشرفي هذا الإقليم ذكره قائلا: "فإقليم معسكر المذكور، فيه ثغور بحرية معدّة للأسطولات كمستغانيم ووهران، ومدائن برية كقلعة راشد

ومدينة اتيلوانت ومدينة البرج التي لا يوجد عنبها إلا في النيروز، وإبان الحرث وقت فَقْدِ سائر الثمر، والحبة منه تملأ الفم ولونه داكن يميل على السواد وجله أحمر قاني".

ويضيف قائلا بعد ذكره جبل العمور: "وجبل العمور هذا من إقليم المعسكر وسائر قرى التل والصحراء، فتاقدمت التي أحياها الأمير عبد القادر بن محي الدين كانت لعبد القوي وقد ذكر"المغيلي" سطوته وقوة جنوده، بينها وبين المعسكر مسافة القصر أربعة برود فأكثر. وقصور الصحراء: قصر بوعلام، والخضرا، وتاويلا، والغاسول، وابرينة، والأبيض، والشلالتين القبلية والظهرانية، وأبو سمغون، والعين الصفرا. وينتهي إقليم المعسكر إلى فجيج الذي هو محسوب من إقليم المغرب الأقصى.

كما تكلم المشرفي عن المدن التي أحدثها الفرنسيون بهذا الإقليم قائلا[59]: "وأحدث الإفرنج مدائن عظيمة حوالي المعسكر من سائر الجهات، فقد أحدث بوادي سيك بالكاف المعقودة، وبوادي هبرة مدائن، وزوَّل السدر الهائل شوكُه والرتم والأثل والقطف بالقاف المعقودة، وغرس الأشجار ذات الثمار في موضع التي لا تثمر، وردَّها جزيرة خضراء حبة الإجاص فيها أو التفاح تزن الرطل أو ما يقرب منه، وعنقود العنب من طازج ثمرته يشبع الاثنين والثلاثة إذا لم يكن فيهم شره ونهمة".

ويضيف قائلا: "كما أحدث بوادي مينة مدائن وحضَّرها للتجار، تعمر أسواقها من سائر الأقطار، وسائر البناءات على ضفة وادي شلف إلى الأصنام، مدينة عظيمة لم تكن في زمن الإسلام، واتخذَّ لها جسرا عظيما يقرب من نصف الميل، بناه أولا بالألواح، ثم بناه بعد ذلك بالحجر المنجور بناء وثيقا". كما تكلم صاحب الرحلة عما آل إليه أمر هذه المدينة زمن الأمير عبد القادر ثم بعد استيلاء الفرنسيين عليها، حين يقول: "وفي زمن الحاج عبد القادر بن محي الدين جمعت أعشار قبائل بني "بوخنوس" على يد رئيسهم القائد أحمد بن الزيتوني، وجعلتها في سرب واحد وما ناصفته. وبعد استيلاء الإفرنج أحياها واتخذها محكمة لقبائل البربر الذين هم في سفح جبل

ونشريس ومنهم العلاَّمة الونشريسي صاحب المعيار، ولمقابلتهم في عدوة أولاد القصير ومدائن مجاجة وأولاد فارس وأحميس إلى ثغر أتنس".

2.8-إقليم مليانة والمدية: قدم لنا صاحب الرحلة معلومات مهمة عن هذا الإقليم، فنجده يذكر أن: "من أقاليم المغرب الأوسط أيضا إقليم مليانة والمدية، امتد من ثغر شرشال إلى أعراب تيطري وسر يمينا من جبل بني امناصر إلى جبال أبراز وجبال أهروات في عدوة وادي شلف الأخرى إلى مدينة "طازي" التي أحياها الأمير عبد القادر بن محي الدين، إلى جبل البخار إلى جبل بوسعادة إلى قبائل أولاد مقران إلى جبال أزواوه المحتوية على ألوف من القرى والمداشر".[60]

3.8-إقليم الزاب: ومن الأقاليم التي عرّف بها المشرفي وقدما لنا وصفا دقيقا عنها إقليم الزاب، الذي يقول عنه: "ومن أقاليم المغرب الأوسط إقليم الزاب المحتوي على مدائن وقرى، قاعدته بسكرة ومسيلة وقسمطينة، وثغوره عنابة وبجاية، وامتد هذا الإقليم إلى خط الجريد، تجيء إليه من نفطة وتوزر وسوف ثمرات النخيل، وعجوته الفائقة على تمره دقلة النور أحلى من السكر وشهد العسل، إلاَّ أنَّ الذي سقطت أسنانه لا يقدر على مضغها إلا إذا دقت وسفَّ دقيقها يجد حلاوتها ونفعها، وينتهي هذا الإقليم يمينا إلى قرى امزاب وعين ماضي والأغواط الشرقي لجبل العمور".[61]

خاتمة: وعموما فإن هذه الرحلة تعتبر من الرحلات الفريدة من نوعها فيما يتعلق بتاريخ الجزائر خلال القرن التاسع عشر خاصة إذا وضعنا في الحسبان أن الوصف الذي قدّمه المشرفي عن الجزائر هو وصف لا نكاد نجد له مثيلا في الكثير من المؤلفات الجزائرية في هذه الفترة عدا التقارير الفرنسية.

الهوامش:

1- عن حياة العربي المشرفي بالتفصيل؛ راجع كتابنا حول هذه الشخصية: "العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي المتوفى 1895-حياته وآثاره"، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية بالرغاية، ط1، 2011.

2- العربي المشرفي، الحسام المشرفي و9و. وهذا المخطوط قمنا بتحقيقه إلى نهاية الترجمة الرابعة في إطار أطروحة دكتوراه تاريخ ونوقشت سنة 2012. وسيطبع المخطوط كاملا بتحقيقنا قريبا إن شاء الله.

3- المصدر نفسه، و365و.

4- عباس بن إبراهيم، الإعلام، ص: 27.

5- وردت العبارة في نزهة الأبصار. ينظر: العربي المشرفي، نزهة الأبصار، ص: 307.

6- العربي المشرفي، الحسام المشرفي، و33ظ.

7- العربي المشرفي، نزهة الأبصار (نسخة الخزانة الحسنية)، ص: 3.

8- ألّف المشرفي بعد إتمام الحسام مباشرة مخطوط الآيات والحوادث الذي ذكر فيه بعض الإشارات عن الحسام وكان ذلك في 29صفر1285هـ/ 1868م أي شهرا ونصف بعد الانتهاء من الأول، وهو ما يجعلنا نقول بأن التاريخ الذي ذكره عن تأليف الحسام صحيحا، إلا أنه يكون قد بلغ أكثر من خمسين سنة عند تأليفه. ينظر: العربي المشرفي، الآيات والحوادث، و10ظ.

9- العربي المشرفي، الرد على أبي راس، ص: 04.

10- العربي المشرفي، ديوان نظم، و111و.

11- العربي المشرفي، طرس الأخبار، ص ص: 180-182.

12- راجع الرواية في: طرس الأخبار، ص ص: 198-199.

13- ابن سودة، إتحاف المطالع، ص: 2805.

14- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 303.

15- فقد ذكر أنه ولد وتعلم بتلمسان. ينظر: ابن سودة، إتحاف المطالع، ج7، ص: 2805.

16- يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج2، ص: 232.

17- ذكر المشرفي شيوخه في هذه المرحلة في ديوانه. ينظر: العربي المشرفي، ديوان نظم، و111ظ.

18- عن شيوخه في هذه المدينة راجع: العربي المشرفي، ذخيرة الأواخر ص: 09.

19 -Henri Pérès, l'Algérie vue par deux voyageurs musulmans. p : 261.

20- عبّر عنها بقوله: "ففاجأنا خروج الإفرنس دمّره الله للثغر الجزائري، فلم يتم لنا المراد في قراءة التفسير ومتون الصحاح، فرجعت لغريس ظافرا بالنحويات والفقيهات والحمد لله، وانتصبت في حياة والدي للتدريس وقرت بي عينه". ينظر: العربي المشرفي، ديوان نظم، و111ظ.

21- لم يذكر المشرفي اسمي هذين العالمين. ينظر: العربي المشرفي، ياقوتة النسب، ص: 35.

22- محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج2، ص: 91.

23- عن ترجمته راجع مقدمة تحقيق الحلل البهية، بتحقيق: إدريس بوهليلة.

24- عن ترجمته راجع: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، ص: 72.

25- عبد السلام بن سودة بن عبد القادر، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، بيروت: دار الفكر، ط1، 1997م،، ص: 100.

26- المصدر نفسه، ص: 100.

27- نفسه، ص: 100.

28- أبو القاسم سعد الله، "مؤلفات المشرفي المعاصر للأمير عبد القادر"، الثقافة، تصدر عن وزارة الثقافة الجزائرية، عدد 75، سنة 13، 1983م.، ص: 81.

29- محمد المنوني، المصدر السابق، ج2، ص: 91.

30- المصدر نفسه، ص: 91.

31- العربي المشرفي، الذخيرة، ص: 03.

32- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، ص: 404.

33- العربي المشرفي، الذخيرة، ص:04.

34- المصدر نفسه، ص:06.

35- نفسه، ص:07.

36- نفسه، ص ص: 04- 09.

37- نفسه، ص: 09.

38- نفسه، ص: 11.

39- نفسه، ص:12.

40- **الثعاليبي**: عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبو زيد، الشهير بالثعاليبي، مفسّر، محدّث، فقيه، وصوفي من كبار علماء الجزائر. ولد عام 786هـ شرقي مدينة الجزائر، من آثاره: الجواهر الحسان في تفسير القرآن. توفي سنة 875هـ بالجزائر. ينظر: السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت: منشورات مكتبة دار الحياة، مج2، ج4، ص: 152.

41- **أحمد بن عبد الله**: الزواوي الملوي المغربي المالكي، نزيل الجزائر، فقيه متكلم صوفي، صاحب القصيدة المشهورة في التوحيد الموسومة بالمنظومة الجزائرية، التي كان الشيخ السنوسي أحد شرّاحها. توفي سنة 884هـ. ينظر: السخاوي، المصدر السابق، مج1، ج1، ص: 374.

42- العربي المشرفي، الذخيرة، ص ص: 19 – 21.

43- المصدر نفسه، ص ص: 39 -45.

44- نفسه، ص: 20.

45- نفسه، ص ص: 46-48.

46- نفسه، ص ص: 24–27.

47- **الحسن بريهمات**: فقيه عالم مشارك، ولد حوالي عام 1821م. توفي سنة 1833م. ينظر: الحفناوي أبو القاسم محمد بن إبراهيم، تعريف الخلف برجال السلف، تحقيق وتقديم محمد أبو الأجفان وعثمان بطيخ، بيروت: مؤسسة الرسالة، تونس: المكتبة العتيقة، ط1، 1982م، ج2، ص: 120.

48- **أحمد قدورة**: من علماء الجزائر وفقهائها، تولى الإفتاء بعد وفاة أخيه محمد سنة 1107هـ. وقد توفي مقتولا عام 1118هـ/ 1706م بأمر من الباي محمد بكداش. ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 356.

49- **علي العمالي**: بن أحمد بن محمد أبو الحسن، فقيه مشارك من كبار علماء الجزائر في العهد الاستعماري قرأ على والده احميدة العمالي. ولد سنة 1848م، وتوفي عام 1906م. ينظر: الحفناوي، المصدر السابق، ج2، ص ص: 546 – 548.

50- **أحميدة العمالي**: فقيه محدث، ولد سنة 1812م، توفي عام 1873م، ودفن بروضة الإمام الثعاليبي. من آثاره رسالة في أحكام المياه، رسالة في ترتيب القضاء. ينظر: الحفناوي، المصدر السابق، ج2، ص: 154.

51- **حمودة القاضي**: فقيه عالم بفروع المذهب المالكي، ومداركه. قدّمه الولاة من بين العلماء لأهليته بصناعة القضاء، وسياسته الدينية والدنيوية، وذكائه وفطانته. ينظر: العربي المشرفي، الذخيرة، ص: 33.

52- المصدر نفسه، ص: 23–34 و ص: 38–49.

53- نفسه، ص ص: 33–36.

54- نفسه، ص: 29.

55- نفسه، ص ص: 32- 33.

56- نفسه، ص: 34.

57- نفسه، ص: 25.

58- نفسه، ص: 25

59- نفسه، ص، 25.

60- نفسه، ص: 25.

61- نفسه، ص: 25.